السنة الأولى المجموعة 02

محاضرة رقم 02

أثر المعتزلة في تأصيل البلاغة العربية _المجاز عند المعتزلة أنموذجا_

1. مفهوم علم الكلام:

الكلام في اللغة يعني الأصوات المفيدة، وهو المعنى القائم في النفس الذي يعبر عنه بالألفاظ، فيقال في نفسي كلام. أما علم الكلام في الاصطلاح هو: « علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه. ويسمى علم أصول الدين، وعلم النظر والاستدلال، وعلم التوحيد والصفات، وسمّاه " أبو حنيفة " الفقه الأكبر ». سمّي كذلك؛ لـ « أنّه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات، أو لأنّ أبوابه عنونت بالكلام في كذا، أو لأنّ مسألة الكلام أشهر أجزائه ». والمتكلّمون هم أصحاب الصناعة الكلامية في بحثهم للقرآن الكريم وتدليلهم على إعجازه واستنباط العقائد منه والدفاع دونه. وقد أخذوا ينقسمون إلى فرق في نهاية القرن الأول الهجري من جبر وإرجاء واختيار، ويتجادلون في مسائل العقيدة.

2. سبب تسميته بعلم الكلام: سمي هذا العلم بعلم الكلام لعدة أسباب منها:

-أهم مسالة وقع فيها الخلاف في العصور الأولى مسألة كلام الله وخلق القرآن، فسمي العلم كله بأهم مسألة فيه.

-لأن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد وليس يرجع إلى أعمال أخرى غير الكلام.

- وقد يرجع إلى كلام علماء علم الكلام في أمور سكت عنها السلف.

-أو لأنه في طرق استدلاله اعتمد على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبنيه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع علم الكلام كمرادف لمصطلح المنطق.

3. أسباب وعوامل نشأة علم الكلام:

1.3. عوامل داخلية:

-مشكلة الخلافة أو الإمامة وأثرها في ظهور علم الكلام، حيث انقسم المسلمون إلى فرق وشيع.

-القرآن الكريم، لما فيه من آيات متشابهات، وكثرة التأويل فيها. وكذا مشكلة خلق القرآن الكريم.

-دعوة القرآن الكريم البشر إلى التأمل وإعمال العقل والبصيرة.

2.3. عوامل خرجية:

- اتساع رقعة الدولة الإسلامية ودخول غير العرب والمسلمين إلى الأمة الإسلامية.

- تأثير الديانات الأخرى على الدين الإسلامي

- الانفتاح على الفلسفة والعلوم الأخرى.

- ازدهار حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي.

4. المعتزلة: هناك عديد الفرق الكلامية كالقدرية والجبرية والجمهية، والمعتزلة، هم « أصحاب " واصل بن عطاء الغزال " لمّا اعتزل مجلس " الحسن البصري " يُقرِّر أنَّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين، فطرده. فاعتزله وتبعه جماعة سُموا بالمعتزلة. ويسمون أهل العدل والتوحيد، ويُلقّبون بالقدرية ».

5. المجاز عند المعتزلة:

حسب ما يشهد له تاريخ الإبداع النقدي والبلاغي عند العرب، لم يتمّ العثور على مصطلح "المجاز" قبل المعتزلة، فقد ورد استعماله من قبل "أبي عبيدة" حيث ألّف كتابا بعنوان "مجاز القرآن" لكن " لم تكن بالمعنى الاصطلاحي الذي اتّخذته فيما بعد، وإنّما كانت بمعنى التفسير أو الشّرح أو الطريق إلى فهم الأسلوب البياني أو اللّفظ أو التركيب أو وجوه النحو على طريقة العرب في كلامها".

إنّ المجاز عند المعتزلة كان ذا صلة متينة بمسألتين هامتين من مسائل التوحيد؛ وهما: مسألة صفات الله، ومسألة خلق القرآن. لأجل ذلك، فقد توسّعوا في استعمال المجاز في النص القرآني بمختلف أنواعه وألوانه وتعمّقوا في بحث مسائله.

أ-المحكم والمتشابه:

لقد ركّز المعتزلة في تأويلهم للقرآن على المتشابه لأنّه حسبهم مكمن الحكمة، فهو يستحثّ العقول على النّظر والتأمّل وطول الدّرس والفحص، ففي المتشابه بعد ذلك امتحان وبلوى لعقيدة المؤمن الراسخ على دينه المتهافت العقيدة، المزعزع الإيمان، الذي يريد التعلّق بأدنى شبهة لينصرف عن الحقّ.

وقد استخدم المعتزلة في سبيل ذلك أسلحة فنيّة هي: العقل واللغة والمجاز؛ فأمّا العقل فهو عندهم الحكم الفيصل بين الأمور وحكمه لا يخطئ، ومن هنا كان مقدّما على النّقل والرواية، وما قد يدلّ عليه ظاهر اللّفظ وصريح العبارة.

وأمّا اللّغة فقد توسّعوا في استعمالها، فقد اتّسعت عندهم دلالات الألفاظ، فأصبحوا يستنبطون للّفظ الواحد أكثر من معنى، ويقلبونه على وجوه المدلولات اللغويّة المختلفة التي يمكن أن يشير إليها، ثمّ ينتقون من هذه المعاني ما يخدم الغرض الاعتزالي، ويصرف المتشابه عمّا يدلّ عليه شكله الخارجي.

بينما يمثّل المجاز السلاح الثالث الذي يلجأ إليه المعتزلة عندما تستعصي عليهم اللغة ولا تسعفهم العبارة أو مدلولات اللّفظ، وعندئذ يحملون العبارة على المجاز، ويستنبط منها لونا من ألوانه الكثيرة المتعدّدة، وبذلك يفقد الكلام معناه الحقيقي، وصفته الظاهريّة ليصبح لونا

من الخيال والصور الفنيّة التي يُراد بها معنى أبعد ممّا يدلّ عليه الظاهر، أو يشير إليه الشّكل الخارجي.

ب-ردّ الشّبه والمطاعن عن القرآن:

وقد كان جزءا من الدفاع عن الإسلام، فكان هذا وجها آخر للحديث عن إعجاز القرآن فعكفوا على إظهار علو منزلة القرآن في النّظم والتأليف، وقد كانت الشبه والمطاعن التي ردّها عن القرآن تشتمل المضمون والشّكل، فمن ناحية المضمون نجدهم قد ساقوا جملة من الآيات التي توهم النظرة السطحيّة إليها مثل ذلك، يقول القاضي عبد الجبار: " وأمّا كونه معجزا بزوال الاختلاف عنه، والتناقض على ما يقتضيه قوله تعالى: **" وَلَو كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا".**

وأمّا من ناحية الشّكل فقد دافع المعنزلة على أسلوب القرآن وشكله في التعبير وكان هذا جانبا من الحديث عن إعجاز القرآن بأسلوب غير مباشر، فقد دافع الجاحظ عن تشبيهات القرآن، فردّ التّهمة التي وُجِّهت إليها عن خفاء العلاقة بين المشبّه والمشبّه به، في تشبيه شجرة الزّقوم مثلا برؤوس الشياطين، ففسّر القول في ذلك، وبيّن أنّ وجه الشبه منتزع ها هنا من غير ما هو مدرك بالحسّ اعتمادا على ثبوته في الإدراك عن طريق العادة والعُرف وتناق الناس له.

ج-قضيّة إعجاز القرآن:

حيث عكف المعتزلة على محاولة الكشف عن إعجاز القرآن وبيان السرّ في ذلك، وذلك عن طريق سلوك العديد من الاتّجاهات منها: مبدأ الصرفة الذي أرجعوا فيه إعجاز القرآن إلى أنّ الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن، أو القدرة عن الإتيان بمثله، فانصرفوا عن ذلك، وتعذّرت عليهم هذه المعارضة لا لأنّ القرآن في حدّ ذاته خارج طوق البشر، أو خارج لمقدرتهم ومألوف عادتهم، فهو لا يتفوّق على البليغ الفصيح من كلام العرب، ولا تكاد تكون له مزيّة أو فضل في ذلك ولو تُرِك لهم المجال وأُفسِح أمامهم الطريق لأتوا بمثل القرآن فصاحة وبلاغة وحسن نظم وتأليف.

ولم يختلف المعتزلة على الجانب البلاغي الذي وسم القرآن، فلم يتنازعوا حتى حوله، فقد كان الاتّفاق شاملا وموحّدا على القرآن معجزة بلاغيّة لا سبيل إلى مداناتها فهو يخرج عن اتجاهين في دراسة أسلوب القرآن، وإظها جانب الإعجاز فيه.

نظرية النّظم: التي ترى أنّ إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، فقد كان كتاب " نظم القرآن" للجاحظ من أبرز الكتب التي عالج فيها قضية نظم القرآن، ففكرة النظم هي فكرة لفظيّة تعتمد على حسن الصوغ، وكما الترتيب، ودقّة التأليف، من حيث اللّفظة المفردة مراعاة بعض شروط الفصاحة، كحسن الانتقاء ودقّة الاختيار، بحيث تكون خفيفة على اللسان في النّطق، سهلة المخرج، رشيقة الوقع في الأذن، وأن تكون سهلة مؤنسة بعيدة عن الغرابة والحوشيّة والتعقيد.

وبعدها تأتي مرحلة الاهتمام بالتركيب والتأليف في سياق الكلام، حيث تعتمد على مراعاة التجانس والانسجام بين الألفاظ المفردة، حينما تسلك إلى جانب بعضها بعضا فلا يبدو هنالك تنافر بين أجزاء الكلام، بل يبدو متلاحما آخذا بعضه برقاب بعض.

وهناك من المعتزلة من اتّجه في دراسته أسلوب القرآن وبيان وجه الإعجاز فيه إلى محاولة اكتشاف ذلك عن طريق الألوان البلاغيّة المختلفة، حيث ردوا الإعجاز إلى وجوه بلاغيّة هي الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة، البيان.